

العودة المتخيلة - الماضي إن حكى

ماهر الشريف*

العودة إلى الجذور

فلسفة "النمو إلى الجذور" التي حكمت مساهمة نادرة شلهوب - كيفوركيان وهمت زعبي بعنوان: "يافا: النفي في الوطن والنمو إلى الجذور"، المنشورة ضمن ملف: "يافا مدينة تختصر وطناً" ("مجلة الدراسات الفلسطينية"، العدد ٩٣، شتاء ٢٠١٣، ص ٥٠ - ٦٥)، هي التي أيقظت رغبتني، أنا الفلسطيني المولود في دمشق والمقيم حالياً في بيروت، في العودة إلى جذوري والتعرف إليها... وكما ورد في المساهمة المذكورة أعلاه فـ"إن الاقتلاع والتهجير القسري لا ينجحان دائماً في اقتلاع الجذور، بل، على العكس، قد ينتج من هذه المحاولة مقاومة تزيد في زخم هذه الجذور، وفي تشبث أصحابها بها."

أخلاف أحمد الشريف

تفيد شجرة عائلتنا بأنها تعود بأصولها إلى الحجاز، وتحديداً إلى رجل يدعى حسين يُزعم أنه من ذرية الصحابي أبو سعيد الخدري، سافر إلى المجدل في حدود سنة ١٧٠٠ ميلادي، واستقر فيها.

في القرن التاسع عشر، وقف على رأس عائلة الشريف في مجدل عسقلان رجلان هما أحمد الشريف من جهة، ومحمود الشريف من جهة ثانية. وكان أحمد الشريف من كبار التجار وشغل منصب نقيب الأشراف، وخلف أربعة أبناء هم إبراهيم الشريف؛ والشيخ سليم الشريف الذي تولى إدارة شؤون الأوقاف في المدينة لفترة طويلة من الزمن، وذلك قبل أن يعتقله العثمانيون في آخر عهدهم لأنه كان من المطالبين باستقلال العرب عن تركيا، ثم أصبح، بعد الاحتلال البريطاني لفلسطين من أنصار الحاج محمد أمين الحسيني، وانتُخب عضواً في اللجنة التنفيذية لـ "الحزب العربي الفلسطيني"، وحضر مؤتمر اللجان القومية العام الذي عُقد في القدس بدعوة من "اللجنة العربية العليا" في ٧

* مؤرخ ورئيس قسم الأبحاث في مؤسسة الدراسات الفلسطينية.

أيار/مايو ١٩٣٦؛ والشيخ محمد الشريف الذي تخرّج في الأزهر سنة ١٩٢٩، وتدرج في سلك القضاء الشرعي إلى أن عُيّن قاضياً شرعياً لمدينة يافا، وحين وقعت النكبة هاجر إلى غزة وعيّن لفترة قصيرة رئيساً لبلدية خانينوس، ثم قاضياً شرعياً لها من سنة ١٩٥٠ حتى سنة ١٩٦٤، ثم انتدب ليكون عضواً في محكمة الاستئناف الشرعية في غزة، وكان شاعراً وخطيباً مفوهاً؛ ودرويش الشريف، جدي، الذي تزوج امرأة من عائلة الخزندار في غزة تدعى زينب، وكان من التجار واستشهد خلال الثورة العربية الكبرى ضد الأتراك. أمّا من أبناء محمود الشريف، فقد اشتهر يوسف الشريف الذي عُيّن رئيساً لبلدية المجدل ما بين سنتي ١٩٢٥ و١٩٢٧، ثم شغل هذا المنصب مرة أخرى ما بين سنتي ١٩٤٤ و١٩٤٦. وقد تعلم كثيرون من أخلاف أحمد الشريف تعليماً عالياً بعد سنة ١٩٤٨، وصاروا يعملون في قطاع غزة وفي الدول العربية.

مدينة المجدل

المجدل كلمة آرامية بمعنى البرج أو القلعة والمكان العالي المشرف على الحراسة، وهي تقع على بعد ٢٥ كلم تقريباً إلى الشمال الشرقي من مدينة غزة، وقرابة ٥ كلم عن شاطئ البحر. ونظراً إلى أن بلاد الشام تضم مواقع عديدة تُعرف بالمجدل، فقد أُطلق عليها اسم مجدل عسقلان نسبة إلى آثار مدينة عسقلان المجاورة لها، التي قام الأيوبيون، ومن بعدهم المماليك، بتخريبها كي لا يتركوا فرصة للفرنجية للاستيلاء عليها. وكانت المجدل محطة مهمة لخط سكة حديد القنطرة حيفا، وكان يمر بها الطريق المعبد الرئيسي الذي يخترق فلسطين من الجنوب إلى الشمال على طول الساحل، كما كانت من من أوائل المدن الفلسطينية التي نشأت بها مدرسة للبنات.

وما إن اندلعت الصدامات بين العرب واليهود، عقب صدور قرار تقسيم فلسطين الدولي في ٢٩ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٤٧، حتى سارع أهالي المجدل إلى تشكيل لجنة قومية ضمت، بحسب إبراهيم عباس، "إلى جانب إبراهيم عباس تنيرة، شفيق الشريف والحاج خليل الخطيب والسيد أبو شرخ وسليم حسين زقوت ومحمود عبد الرحيم مهدي ومحمد خليل موسى المدهون وغيرهم. وتضمنت أنشطة اللجنة إلزام الأهالي بتقديم "بارودة" (بندقية) واحدة على الأقل عن كل عائلة من عائلات المجدل. وخاض أهالي المجدل العديد من المعارك تحت قيادة المجاهد طارق الإفريقي ضد الصهيونيين قبل دخول القوات المصرية في ٢١/٥/١٩٤٨".

وبعد أن احتلت القوات الإسرائيلية مدينة المجدل في ٥ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٤٨، قامت بطرد سكانها العرب البالغ عددهم آنذاك نحو ١١,٠٠٠ نسمة، وأجبرت معظمهم على النزوح إلى قطاع غزة، وأحلت محلهم عائلات يهودية شرقية مهاجرة، وخصوصاً من المغرب واليمن. ووفقاً للرواية الصهيونية، بقي في المجدل نحو ٢٧٠٠ مواطن عربي، كان معظمهم من عمال الزراعة والنسيج، تمّ ترحيلهم بالتدرج في سنة ١٩٥٠. ولم يكتفِ الإسرائيليون بذلك، وإنما غيّروا معالم الجزء الغربي من المجدل بإقامتهم المباني الحديثة على أراضيه

وعلى أراضي قرى نعليا والجوزة والخصاص، ووسَّعوا مياه عسقلان على البحر الأبيض المتوسط، فأصبحت رقعة مدينتي المجدل وعسقلان العمرانية واسعة، واتصلتا بحيث أصبحتا مدينة واحدة أطلقت عليها إسرائيل اسم عسقلان (أشكلون)، ومحت اسم المجدل من الوجود. وتُعتبر المجدل اليوم من أهم مدن فلسطين الجنوبية، إذ تشكل مركزاً صناعياً وزراعياً ومدينة تجتذب عشرات الآلاف من السياح سنوياً، فضلاً عن كونها ميناء بحرياً مهماً. وفي سنة ١٩٧٣، قُدِّر عدد سكانها بنحو ٤٦,٢٠٠ نسمة، ووصل في سنة ١٩٨٣ إلى ٥٢,٩٠٠ نسمة، وهو يبلغ اليوم أكثر من ١٠٠,٠٠٠ نسمة.

صناعة النسيج

اشتهرت مدينة المجدل بصناعة النسيج، فكانت تنتج القماش بجميع أنواعه مثل قماش المبرز والتوسا المقلمين، والكوفيات القطنية والحريرية، وقماش الفرش المالطي والبفت، وقماش البدل، والشراشف، والمناشف. وكان التجار المجدليون يَسوّقون منتوجاتهم في جميع أنحاء فلسطين، وعُرف عنهم أنه لا يمكن مخادعتهم في سعر البضاعة ومواصفاتها، ومن هنا جاء القول الدارج "بيعة ما حضرهاش مجدلاوي"، إذ كان كثير من القرويين المحيطين بمنطقة المجدل يستعينون بهم عندما ينوون شراء ماكينات الري والتراكتورات وما شابه ذلك من الشركات الكبيرة في مختلف المدن مثل يافا وحيفا. واستطاعت المجدل بفضل مهارة صنّاعها أن تحوز على الجائزة الأولى في صناعة النسيج في المعرض العربي القومي في القدس في سنة ١٩٣٤. وتطورت صناعة النسيج خلال الحرب العالمية الثانية، حتى بلغ عدد الأنوال فيها ما يزيد على ٣٠٠٠ نول. وفي أواخر عهد الانتداب البريطاني أُدخلت بعض الأنوال الآلية إلى المدينة. ويعود الفضل في إدخال صناعة النسيج إلى مدينة غزة، إلى سكان المجدل الذين هاجروا إليها بعد النكبة.

واشتهرت المجدل بأغاني عامل النسيج الذي كان يغني في أثناء عمله، فيقول:

مرت الحلوة عن باب داري	لابسة ثوب جنة وناري
إن كنت عزب يا خصّ حبابي	وإن كنت متزوج بعدّ من هون
يمّ التنورة الحرير البوالي	ليش تأخرتي للضحى العالي
بكرّي من الصبح بدري تعالي	يمّ الهليل بعين العيوننا
يمّ التنورة الصوف الربيعي	بياضك صناعي ولا طبيعي
خدليك ليرة بس طيعيني	عشان نغني على دلـعوننا
لابسة المنديل طية على طية	راحت لأبوها تشتكي عليّ
والله ما أفوتك يا هالبنية	لو حكموا عليّ مؤبدونا

ومن الأغاني التي غناها الأهالي للعامل على النول:

شغيل النول الجيزة بدها جسارة
شغيل النول وتجاوزت بنت النصارى
شغيل النول وذراع التوسا بمجيدي
شغيل النول وتجاوزت بنت اليزيدي

وغنت المرأة لحبيبها العامل على النول:

شغّال النول يسلملي دياتك	على من الحلوة تلبس شغلاتك
أطلب من الله يرحم إخوانك	وتضل عايش إلنا يابو العيونا
شغّال النول تسلم لي إيدك	قلبي يا حلو من جوه يريديك
ليش بتوعدي وتخلف مواعيدك	يا بو الهليل فوق العيونا
ثوب أبو متين الله يديمك	كل الصبايا من لبّاسينك
يسلم نساجينك مع صباغينك	لبسه في الفرحة أحسن ما يكونا

مصباح درويش الشريف

ولد والدي مصباح درويش الشريف في سنة ١٩١٢، وبعد أن حصل على شهادة الثاني الثانوي من مدرسة المجدل الثانوية، سافر ضمن بعثة أوفدتها معارف حكومة فلسطين إلى مصر حيث التحق بـ "مدرسة الغزل والنسيج الثانوية" بالمحلة الكبرى في سنة ١٩٣١، وتخرج يحمل شهادة دبلوم حديث في سنة ١٩٣٥، ثم قضى ما بين سنتي ١٩٣٥ و١٩٣٧ في تدريبات عملية وفنية بناءً على رغبة معارف حكومة فلسطين. وبعد عودته إلى فلسطين، عمل مدير "دائرة الصناعات الخفيفة"، وهي دائرة حكومية مسؤولة عن تنظيم صناعة المنسوجات المجدلية وتسويقها، وتقع في الشارع العام في المجدل. وكان أصحاب مصانع النسيج في المجدل يحضرون إلى هذه الدائرة ليأخذوا الغزل بحسب عدد الأنوال التي يملكونها، بينما كان موظفو هذه الدائرة يقومون بالتفتيش على هذه المصانع، ويختمون الأثواب الجاهزة استعداداً لبيعها بحسب التسعيرة.

مدينة يافا - عروس البحر

انتقل والدي في مطلع الأربعينيات إلى مدينة يافا واستقر فيها، وهي من أقدم مدن

فلسطين وأهمها، وعُرفت باسم "عروس البحر"، وتقع على الساحل الشرقي للبحر الأبيض المتوسط. وتعددت مصادر تسمية هذه المدينة بهذا الاسم، فوفقاً للأساطير، تعود تسميتها إلى "يافت" أحد أبناء النبي نوح، وقيل إن اسمها يعود إلى "يافي" الكنعانية، ويعني الجمال، كما ورد اسم البلدة "يابو" في أحد البرديات المصرية القديمة باللغة الهيروغليفية، وأُطلق عليها في اليونانية القديمة اسم "يوباً". وبلغ عدد سكانها وسكان القرى المحيطة بها في سنة ١٩٤٨ نحو ١٢٠,٠٠٠ نسمة.

واحتلت مدينة يافا مركزاً مهماً في التجارة الداخلية والخارجية بفضل مينائها الذي يُعد ميناء فلسطين الأول من حيث القدم والأهمية التجارية والاقتصادية. وكان فيها ست أسواق رئيسية متنوعة وعامرة، كما قامت فيها عدة صناعات من أهمها: صناعة البلاط، والأسمت، والسجائر، والورق والزجاج، وسكب الحديد، والملابس والنسيج، وكانت أيضاً مركزاً متقدماً في صيد الأسماك. واعتُبرت يافا عاصمة فلسطين الثقافية، إذ صدرت فيها في الأربعينيات عشر مجلات أسبوعية وصحف يومية، وبلغت مدارسها ٤٧ مدرسة قبل سنة ١٩٤٨، منها ١٧ للبنين، و١١ للبنات، و١٩ مختلطة. وكان فيها أربعة مستشفيات.

وأدت مدينة يافا دوراً مميزاً في الحركة الوطنية الفلسطينية، وفي مقاومة الاحتلال البريطاني والحركة الصهيونية، ودارت فيها خلال نيسان/أبريل ١٩٤٨ معارك دامية بين أفراد جيش الإنقاذ ووحدة من "الهاغاناه" و"الإرغون"، انتهت باستسلام حامية المدينة وإعلانها مدينة مفتوحة. وكانت السلطات البريطانية قبل انسحابها من المدينة قد أُجبرت "الهاغاناه"، التي فرضت حصاراً على المدينة، على إبقاء منفذ بري على طريق يافا - القدس مفتوحاً أمام المدنيين الذين لم يبقَ منهم، بعد سقوط المدينة في أيدي القوات الصهيونية، سوى نحو ٣٥٠٠ نسمة، جُمعوا في حي العجمي، بعد إحاطته بالأسلاك الشائكة، وبات الخروج منه والدخول إليه يحتاج إلى تصريح من الحكم الصهيوني.

وقامت بلدية تل - أبيب في سنة ١٩٥٠ بضم مدينة يافا إلى سلطتها، وأصبحت بلدية واحدة تسمى بلدية تل أبيب - يافا. وشرعت السلطات الإسرائيلية في تهويد المنطقة وتغيير الطراز المعماري للمكان من خلال هدم جزء كبير من المباني القديمة، وتدمير أحياء وقرى بأكملها، واستبدال أسماء الشوارع بأسماء عبرية.

وقد تغنى عدد من الشعراء العرب الكبار بيافا وجمالها، فكتب محمود درويش:

أحج إليك يا يافا
معي أعراس بياره
فناديها عن الميناء
عن الميناء ناديها
وشديني وشديها
إلى أوتار قيثارة

لنحيي سهرة الحارة
وشوق الحب للحناء

أما محمد مهدي الجواهري، الذي زار فلسطين في مطلع الأربعينيات، فكتب في قصيدة بعنوان: "يافا الجميلة":

تمطرٌ عارضٌ ودجا سحابٌ	بِيافا يومَ حُطَّ بها الرُّكابُ
مريبٌ الخطو ليس به شهابٌ	ولف الغادة الحسنة ليلٌ
ففيها من تحرُّشِه اضطرابٌ	وأوسعها الرزاذ السحُّ لثماً
كحالمة يجللها اكتئابٌ	ويافا والغيوم تطوف فيها
بكف الغيم خيط لها ثيابٌ	وعارية المحاسن مغريات
وبين الشمس غطاها نقابٌ	كأن الجوبين الشمس تزهي
وبالأنواء تغتسل القبابٌ	وموج البحر يغسل أخصيها
وأتراب ليافا تستطابٌ	فقلت وقد أخذت بسحر يافا
بناتك كلها خودٌ كعابٌ	فلسطين ونعم الأم هذي

مصانع التاج الذهبي

امتلك والدي في مدينة يافا مصنعاً للنسيج باسم "مصانع التاج الذهبي" أنشئ في ضواحي المدينة قرب قرية "بيت دجن". وجاء في أحد إعلانات هذه المصانع أنها كانت تنتج "أفخر أنواع الأقمشة الصوفية، الحريرية، القطنية"، وكانت تشغل بـ "النسيج، والصبغة وطباعة الأقمشة"، كما ورد في الإعلان المعلومات التالية: "يافا - فلسطين، ص. ب. ٣٨٥ ت. ٢٢١". ويتبين من وثيقة صادرة عن "هيئة بلدية يافا"، بتاريخ ٥ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٤٧، أن والدي كان يدفع ١٣٠ جنيهاً ضريبة جَرَف البلدية، عن مصنع النسيج الذي امتلكه. كما امتلك محلاً لبيع القماش والملابس في شارع إسكندر عوض التجاري.



إعلان لمصنع التاج الذهبي

MUNICIPAL CORPORATION OF JAFFA
 BUSINESS TAX DEMAND NOTE No 8814
 عيرت יפו
 חשבון דרישה מס עסקים

To: السيد صباح الغرير
 Address: بانا - زلطون

Please take notice that your account has been debited in respect of Municipal Business Tax as shown here-below

رقم الحساب	الصفحة	نوع المرفق أو البنية	الموقع	السنة
Account No.	Page	Nature of Trade or Business	Location	Year
100-110	100	صناعات	بانا - زلطون	1954

The Tax is payable in conformity with By-Law 916 of the Jaffa Municipal (Business Tax) By-Laws 1954.

Arrears due as at: 10/10/54

Tax due on: 10/10/54

Total Due: 100

CHAIRMAN MUNICIPAL CORPORATION

10/10/54

NOTE: If you fail to pay the Tax within 15 days from the date on which it is payable, your property will be liable to seizure and sale in accordance with the provisions of the Municipal Corporation Ordinance, 1954.

الوثيقة الصادرة عن بلدية يافا

حي النزهة في يافا

ويتبيّن من عقد زواج والدي بوالدتي عصام الزين في ١٠ نيسان/أبريل ١٩٤٦، أنه كان يقطن في ذلك التاريخ داراً واقعة في حي النزهة، ذكر عنها في إحدى المناسبات أنها كانت داراً واسعة من طبقتين، أشبه بالفيلات. أمّا حي النزهة فهو أحد سبعة أحياء رئيسية في المدينة، إلى جانب البلدة القديمة، ومن أقسامها الطابية والقلعة والنقيب، وحي المنشية ويقع في الجهة الشمالية من يافا، وأرشيد ويقع جنوبي حي المنشية، والعجمي ويقع في الجنوب من يافا، وحي الجبلية ويقع جنوب حي العجمي، وهرميش "هرميتي" ويقع في الجهة الشمالية من حي العجمي. كما كان هناك أحياء صغيرة تُعرف باسم "السكنات"، ومنها "سكنة درويش"، و"سكنة العرابنة"، و"سكنة أبو كبير"، و"سكنة السيل"، و"سكنة تركي".

ويقع شارع النزهة شرقي مدينة يافا، وقام ببنائه والي يافا العثماني حسن بك الجابي وسّماه شارع جمال باشا حاكم بلاد الشام والحجاز، ثم جاء البريطانيون فأطلقوا عليه اسم شارع الملك جورج، ويسمى اليوم جادة القدس (شديروت يروشلايم)، لكنه بقي كما سمّاه أصحابه شارع النزهة لأنه اختط وسط بساتين البرتقال. وهو يلتقي بشارع المنشية وشارع بسترس/إسكندر عوض، وكانت حديقته الوسطية عنوان التقدم المعماري. وقد أقيمت فيه البنايات الضخمة، ومنها: مبنى البلدية، ودائرة البريد المركزية، ودور السينما: "سينما الحمرا" وهي الأقدم وبُنيت في الثلاثينيات، واشتهرت لاستضافتها عمالقة الفن المصري والعربي كالسيدة أم كلثوم وفريد الأطرش ومحمد عبد الوهاب، كما عُرض فيها أشهر الأفلام السينمائية المصرية، و"سينما الرشيد" التي أنشئت قرب دار البريد في بداية الأربعينيات، و"سينما نبيل" التي أقيمت في نهاية الشارع في سنة ١٩٤٦، و"سينما فاروق". كما ضم هذا الشارع عدداً من الفنادق الفخمة، مثل فندق سميراميس وفندق الكونتنتنتل، والنوادي، مثل النادي الرياضي الإسلامي الذي أقيم في سنة ١٩٢٦، وكان أعضاؤه من المسلمين والمسيحيين، وكانت نشاطاته في أغلبيتها أدبية، كما كان له نشاطات رياضية. وأقيم في الحي أحدث جامع في المدينة هو جامع النزهة الذي بُني في حدود سنة ١٩٣٠.

يافا اليوم

استولت السلطات الإسرائيلية، بناءً على قانون "أملاك الغائبين" لسنة ١٩٥٠، على جميع ممتلكات سكان يافا العرب الذين هُجروا أو اضطروا إلى الهجرة منها، وقامت بإدارة شؤون هذه الممتلكات "دائرة أراضي إسرائيل". ولم يبقَ من سكان يافا العرب، التي تُعتبر من المدن المختلطة في إسرائيل، سوى نحو ٢٣,٠٠٠ عربي. وتتكون المدينة من ١٢ حياً يسكن العرب في ثلاثة منها هي: حي العجمي وحي الجبلية وحي النزهة عند شارع جمال باشا. بيد أنه بعد استيلاء المؤسسة الإسرائيلية، عبر أوامر المصادرة والهدم، على ٨٠٪ من حي العجمي وحي الجبلية الفلسطينيين، لم يبقَ من هذه الأحياء الثلاثة لإقامة العرب وسكنهم سوى حي

النزهة، علماً بأن "دائرة أراضي إسرائيل" لا تزال توزع بين الفينة والأخرى إخطارات هدم بحق منازل عائلات عربية في هذا الحي. أمّا في البلدة القديمة، الخالية من السكان العرب، فإن الوجود العربي يحضر فقط من خلال بعض الكنائس والمساجد التي بقيت قائمة.

ما بعد النكبة

بوقوع النكبة، اضطر والدي إلى الهجرة إلى سورية حيث موطن والدتي، وحاول أن يفتح مشروعاً تجارياً في مدينة دمشق، واستأجر بيتاً في أحد أحيائها الراقية وهو حي الروضة، بعد أن امتنع من تسجيل اسمه في لوائح وكالة "الأونروا" - ربما لرفضه أن يصنّف وهو الصناعي الميسور القادم من فلسطين بصفته "لاجئاً"، وأدخلنا، أنا وإخوتي الذين ولدنا في دمشق، مدارس خاصة. لكن طموح والدي كان أكبر، فهاجر في مطلع الخمسينيات إلى الكويت حيث راح يعمل في تجارة النوفوتيه، وازدهرت أعماله في البدء، الأمر الذي دفعه إلى استدعاء عائلته للالتحاق به في حدود سنة ١٩٦٤، إلى أن بات يواجه ظروفاً قاسية تسببت بمرضه ووفاته في الكويت وهو لم يتجاوز التاسعة والستين من العمر.

أمّا أنا، فلم أنتقل، بعد أن حصلت على شهادة الدراسة المتوسطة، مع بقية أفراد العائلة إلى الكويت، لأنني كنت من المتفوقين في دراستي، وأحببت - برضى والدي - أن أكمل تعليمي في سورية. وهكذا، بقيت في دمشق وترعرعت في منزل جدي لوالدتي، حيث خضعت لتأثيرين ديني، من ناحية، وناصري، من ناحية أخرى. ومع الوقت، طبعني التأثير الثاني بطابعه، وجعلني أنضم، وأنا في الصف الثاني الثانوي، وتأثير من زملائي في ثانوية "جول جمال"، إلى "حركة القوميين العرب"، ومنها إلى صفوف المقاومة الفلسطينية، لبدأ منذ ذلك الوقت التزامي الذي لم يتزحرج، على الرغم من التطور الذي طرأ عليه، بقضية شعبي.

وأنا اليوم أتساءل: يا ترى ماذا كان مصيري، وماذا كنت سأكون، لو لم ينجح المشروع الصهيوني في اقتلاع عائلتي من وطنها وتشريدنا وانتزاع ممتلكاتها؟ هل كنت سأكون ما أنا عليه الآن، مؤرخاً يؤرخ لفلسطين التي كانت، وفلسطينياً ملتزماً يتوق إلى العودة إلى أرض الجذور؟

العودة إلى الجذور، أين وكيف؟

هنا ليسمح لي القارئ أن أطلق العنان لمخيالي...
قد يقال إنه في حال قيام دولة فلسطينية مستقلة في الضفة الغربية، بما فيها القدس الشرقية، وقطاع غزة - وهو هدف بات بعيد المنال كما يبدو على الرغم من محدوديته - يستطيع اللاجئون الفلسطينيون أن يعودوا إليها، وتستطيع المنطقة التي صنّفت وفقاً لـ "اتفاق أوسلو ٢" تحت اسم المنطقة "ج"، ومن ضمنها الأغوار، أن تستوعب مئات الآلاف منهم باعتبارها منطقة قليلة الكثافة السكانية إلى حد كبير... بيد أن جذوري أنا ليست في الضفة

الغربية ولا في قطاع غزة، وإنما في فلسطين التي كانت قبل النكبة، وتوقي هو العودة إلى أرض أصبحت اليوم إسرائيل؟..
فهل يمكن تخيل مثل هذه العودة؟

ربما هذا ممكن في حالة واحدة، هي قيام دولة مشتركة ديمقراطية على كامل أرض فلسطين الانتدابية يتمتع فيها أبناء الشعبين، الفلسطيني والإسرائيلي، بمساواة كاملة، وتقوم على مبدئين رئيسيين: يعترف الفلسطينيون بتبلور قومية إسرائيلية في فلسطين لا يربطها رابط بما يسمى "شعباً يهودياً عالمياً"؛ ويعترف حكام إسرائيل بمسؤوليتهم الأخلاقية عن مأساة الفلسطينيين وعن تشريد القسم الأعظم منهم، وهو ما يعني إقرارهم بحق من يرغب من اللاجئين في العودة إلى وطنه... وأنا شخصياً عندما أتمتع بهذا الحق ويكون في إمكاني وضعه موضع التطبيق، سأكون مستعداً للتنازل عن عودتي إلى "الديار" التي سُردنا منها، وأرضى أن يتم استيعابي في المناطق التي تخطط الحكومة الإسرائيلية لاستيعاب المهاجرين اليهود الجدد فيها. وعندها سيكون من الطبيعي إلغاء "قانون العودة" الذي وُضع في سنة ١٩٥٠، وأتاح لكل يهودي، مهما تكن جنسيته، فرصة أن يهاجر إلى إسرائيل وأن يصبح مواطناً فيها، ذلك بأن الفلسطيني المشرد الذي يرفض التوطين خارج وطنه، ويشكل توطينه مشكلة جدية للدول المضيفة أو لبعضها، هو الذي يحتاج، من الناحية الأخلاقية، إلى العودة، لا اليهودي المندمج في مجتمعه، والذي يرفض في بعض الحالات أصلاً - كما في حالة أغلبية يهود الولايات المتحدة الأميركية - فكرة وجوده في الشتات.

وإذا كان من الطبيعي أن تكون الدولة الديمقراطية المنشودة منفتحة على البلاد العربية التي تشكل عمقها، فإن من الممكن، في المقابل، أن تتحول إلى مركز ثقافي وديني يتردد عليه اليهود في العالم بصفتهم مواطنين لدولهم يرغبون في الحفاظ على علاقاتهم مع إخوانهم في الدين وتطويرها.

إنه حل أخلاقي إنساني لهذا الصراع المستمر منذ قرن ونيف، لكنه حل طوباوي وغير واقعي في ظل موازين القوى القائمة، وفي ضوء المناخات السياسية والنفسية السائدة بين اليهود في إسرائيل، بعد أن برزت، منذ مطلع الألفية الثالثة، "صهيونية جديدة" اتسمت بطابع قومي وديني، وأشاعت أن الصراع مع الفلسطينيين هو صراع وجودي لا حل له إلا بفرض الاستسلام الكامل على الشعب الفلسطيني، وأن على المجتمع الإسرائيلي أن يعيد تربية الجيل الفتى بـ "روح حرب ١٩٤٨" ويعزز "الإجماع القومي".

وعليه، ما لم يحدث انقلاب جذري في وعي الإسرائيليين يزيل أو يُضعف تأثير هذه "الصهيونية الجديدة"، وهو انقلاب لا يمكن تصوّره من دون تغيير ملموس لمصلحة العرب على موازين القوى في هذا الصراع، يبدو أن الباب سيبقى مسدوداً أمام الحل الواقعي العادل لهذا الصراع ومفتوحاً فقط أمام الخيال. ■

المراجع

- أبو الجبين، خيرى. "كتاب حكايات عن يافا". عمان: دار الشروق، ١٩٨٥.
- الأقطش، إسماعيل مسلم وأحمد حمد النعيمي. "صورة مدينة يافا في نماذج من الشعر العربي منذ عام ١٩٦٧ إلى ١٩٩٠". مجلة جامعة دمشق، المجلد ٢٨، العدد ٣ - ٤ (٢٠١٢)، ص ١١٧ - ١٤٧.
- حسين، عبد الرحيم أحمد. "قصة مدينة: المجدل وعسقلان". سلسلة المدن الفلسطينية (١٦). تونس: المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم - دائرة الثقافة في منظمة التحرير الفلسطينية، [١٩٨٧].
- صالح، محمود. "المجدل... عسقلان: تاريخ وحضارة". غزة: المركز القومي للدراسات والتوثيق، ١٩٩٩.
- عباس، إبراهيم. "المجدل - عسقلان: حكاية من ملحمة التشبث بالأرض". شبكة الإنترنت للإعلام العربي - أمين، في ٢٤/١٠/٢٠١٠، في الموقع الإلكتروني التالي: www.amin.org
- غربية، عز الدين. "قصة مدينة: يافا". سلسلة المدن الفلسطينية (١). تونس: المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم - دائرة الثقافة في منظمة التحرير الفلسطينية، [١٩٨٥].
- قليوبي، طاهر أديب. "يافا مشاهد شوق وحنين". بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠١.
- كناعنه، شريف ورشاد المدني. "القرى الفلسطينية المدمرة (٢): مجدل عسقلان". بير زيت: جامعة بير زيت، مركز الوثائق والأبحاث، حزيران/يونيو ١٩٨٦.
- الناظر، صلاح إبراهيم ومحمد سعيد إشكنتنا. "يافا للأبد/كما عايشها ناصر الدين النشاشيبي". تقديم عدلي مسعود الدهلي. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠١٣.
- ملف "يافا مدينة تختصر وطناً". مجلة الدراسات الفلسطينية، العدد ٩٣ (شتاء ٢٠١٣)، ص ٣٤ - ١٢١.
- بعض الأوراق العائلية.

من منشورات مؤسسة الدراسات الفلسطينية

القدس مفتاح السلام

وليد الخالدي

٢٤٤ صفحة ١٠ دولارات